من تراثنا الطبي
طبيب وكتاب

زهير حميدان – دمشق

الطبيب: ***هو شرف الدين علي بن عيسى الكحال البغدادي المولد والوفاة. كان يُعرف في الغرب الأوربي باسم (جيزوهالي Jesyhaly)، كما ذكر (العالم ماكس ميرهوف) في كتابه (تراث الإسلام)- قسم العلوم والطب (ص 476) ترجمة: جورجيس فتح الله.***

ولد عام (329هـ/940م)، وتوفي عام (400هـ/1009م)، وفي رواية أخرى عام (401هـ/1010م).

يُعدّ علي بن عيسى مؤسس طب العيون العربي، كما يقول المستشرق الألماني (هيرشبرغ) في كتابه (أطباء العيون العرب)، في مقالته عن (كتب طب العيون العربية). وذلك لأبحاثه وإبداعاته الرائعة في مجال طب العيون، والتي تفوّق فيها على كل من سبقه من الأطباء اليونانيين والعرب، ممن عاصروه أو ظهروا بعده حتى القرن الثامن عشر الميلادي- الثالث عشر الهجري.

أهم مؤلفاته وإبداعاته:

1- أسلوبه أو منهجه الذي أبدعه واعتمد عليه في بحثه العلمي وفي تأليف كتبه وبخاصة (تذكرة الكحالين)، الذي وضع له قواعد علمية دقيقة منطقية تميزت عن قواعد التأليف التقليدية التي كان يتبعها من سبقه من الأطباء كحنين بن اسحاق 260هـ/873م وبخاصة في كتابيه (المقالات العشر في العين) و(المسائل في العين).

2- إبداعه في وصف (التهاب الشريان الصدغي والقحفي) والعلاقة بين هذين الالتهابين واضطراب الرؤية في مرض الشقيقة.). فلقد سبق هذا الطبيب العربي (د.جونثان هجتنسن Huthinson 1890م) بما يزيد على ثمانية قرون. كما ذكر (د.هاملتون وزمرة من زملائه) في (مجلة الطب الأمريكية العدد الأول لعام 1971م) في بحث لهم تحت عنوان

(التهاب الشريان في الخلايا العملاقة مع التهاب الشريان الصدغي) فقد أفاد هؤلاء: أنه قد سبق علي بن عيسى ولاحظ في (تذكرته) وبيّن العلاقة بين الشرايين الملتهبة وأعراض الرؤية. وذلك أثناء بحثه عن سلِ الشرايين وكيّها.

وتأكيداً لما قاله (د.هاملتون وزمرته) نورد ما جاء في (الباب الخامس والعشرين من المقالة الثانية من التذكرة) تحت عنوان (في سل شرايين الصدغين وكيها) إذ قال علي بن عيسى: (... قد تعالج أوجاع الشقيقة والصداع والذين تعرض لهم نزلات مزمنة في الأعين أو نزلات الأصداغ حتى ربما خيف على البصر من التلف...).

ثم تابع يقول في وصف عملية سلّ الشريان: (... فينبغي حينئذ أن تأمره بحلق الرأس وتفتش عن الشريانات بالأصابع بعد تسخين الموضع بالدلك وبالكماد بالماء الحار. ويكون ذلك بعد شد الرقبة والخنق الرقيق حتى إذا ظهر الشريان علّمت عليه بالمداد، ثم تجذب الجلد إليك بالأصبعين من اليد اليسرى ثم تشقه بالمقراض شقاً معتدلاً، ويكون الشق في الجلد وحده، ثم تمد العرق إليك بصنارة حتى يخلص من جميع جهاته وتكويه، فإن كان الشريان دقيقاً فأدخل تحته مبضعاً وابتره..).

الكتاب: هو (تذكرة الكحالين) أو ما يُعرف عند الباحثين (بالتذكرة) كتبه علي بن عيسى في نحو عام 400هـ/ 1009م. وأودع فيه مجمل نظرياته ومعطياته في طب العيون التي جعلته بحق مؤسس علم طب العيون العربي. وهذه المعطيات والإبداعات أيضاً هي التي جعلت (التذكرة) في طليعة كتب الطب التي ظلت معتمدة طوال أكثر من 800 سنة يتداولها الأطباء وطلاب الطب في بلاد العرب والإسلام وفي البلاد الأوربية خلال القرون الوسطى حتى مطالع عصر النهضة، وقد تجلت أهمية هذا الكتاب في كونه:

1-**أقدم كتاب مرجعي تاريخي**، إذ اشتمل على معظم نظريات وأبحاث المتقدمين من أطباء العيون وتجاربهم ومعالجاتهم لأمراض العيون. مما يدل على سعة اطلاع علي بن عيسى على أبحاث من تقدمه من الأطباء وكتبهم سواء كانوا من العرب أو اليونانيين. ولهذا فقد كان منهلاً ينهل منه كل طالب طب ومرجعاً أساسياً لتاريخ طب العيون القديم. ولهذا أيضاً تناوله الكثير من الأطباء بالشرح أو الاختصار.

يقول ابن أبي أصيبعة في (عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص 333): (... وكتابه المشهور (بتذكرة الكحالين) هو الذي لا بد لكل من يعاني صناعة الكحل أن يحفظه. وقد اقتصر الناس عليه دون غيره من سائر الكتب التي قد أُلفت في هذا الفن وصار ذلك مستمراً عندهم..).

كما قال مؤرخ العلم (جورج سارتون) في مقدمته في هذا الصدد: (... إنه أقدم مؤلف في العين في اللغة العربية نجد منه نسخاً كاملة إذا استثنينا (العشر مقالات في العين) لحنين بن اسحاق).

2-**هو كتاب ذو قيمة علمية ونقدية**، إذ لم يكن كتاباً جامعاً لنظريات المتقدمين فحسب بل وضع إلى جانب كل منها نقداً علمياً واضحاً سواء كان سلبياً أو إيجابياً، بالإضافة إلى معطياته وإبداعاته الشخصية وتجاربه التي حصل عليها من ممارساته ومعالجاته اليومية لمرضى العيون.

وفـــي هذا الصدد يقول (هيرشبرغ): (... إنه- التذكرة- من أصح وأدق الكتب التي وصلتنا في هذا الفـــن... وقـــد وصل إلينا على ما كان عليه في اللسان العربي.. انظر المقدمة التي وضعها محقق الـــتذكرة غوث محب الدين القادري) ثم يقول هيرشبرغ أيضاً: بأننا لا نجد في أوربا قبل بداية القرن الثامن عشر الميلادي كتاباً يرقى إلى مستوى هذا الكتاب.

3-وهو كتاب علمي تعليمي منهجي: وضعه علي بن عيسى وفق منهج علمي منطقي وأسلوب تعليمي سهل المنال قريب إلى أفهام طلاب الطب فقد اتبع فيه (التقسيم التشريحي لأجزاء العين) فيبدأ في عرضها ثم يتعرض لأمراض الأجفان ثم جهاز الدمع ثم أمراض الملتحمة فالقرنية فالقزحية إلى آخـــر الأجـــزاء. وفي ذلك تميز على سابقيه من أطباء العيون الذين كانوا يعرضون أمراض العين جملـــة دون تصنيف. وفي صدد هذا التصنيف العلمي المنطقي الذي اتبعه علي بن عيسى في تأليف الـــتذكرة يقول د.نشأت حمارنة في كتابه (تاريخ أطباء العيون العرب، ص 60): (... وفي المعالجة لا يحـــيد عـــن أســـلوبه العلمي أبداً. فهو يبدأ بالمعالجات العامة التي تطبق على الجسد لفائدة العين المريضـــة ثـــم يذكر الأدوية الموضعية التي تطبق على العين...) ثم يتابع معلقاً على هذا الأسلوب المدرسي فيقول: (... وهذا النموذج من الكتب المدرسية، ما نزال نعمل وفقه حتى الآن أي منذ ألف عـــام، فأسلوب علي بن عيسى هو الأسلوب الذي ما يزال يحكم طريقة التصنيف والتأليف والتدريس في مادة أمراض العين... في جامعاتنا...).

إن نظرة استعراضية للمقالات الثلاث التي يحتويها الكتاب (التذكرة)، تؤيد ما ذهبنا إليه.

فالمقالـــة **الأولـــى**: وتتألف من واحد وعشرين فصلاً يتناول فيها المؤلف تشريح العين وتركيبها ووظائفها وفعلها.

والثانـــية: وتتألف من أربعة وسبعين فصلاً تتناول أمراض العين التي يستطيع الطبيب المعالج مشاهدتها.

والثالـــثة: وتـــتألف مـــن ســـبعة وعشـــرين فصلاً تستكمل ما جاء في المقالة الثانية. وتتناول الأمراض التي لا يدركها الطبيب المعالج بالمشاهدة.

وفي نهاية هذه المقالة يستعرض علي بن عيسى الأدوية المفردة التي تُستخدم في علاج أمراض العين وفق حروف الهجاء. ثم يذكر مائة وثلاثين مرضاً من أمراض العين مع ذكر علاجها بواسطة (143) دواء.

ولا ريـــب أن هذه الأهميات التي اكتسبها هذا الكتاب قد جعلته من أقدم الكتب التي تُرجمت إلى مخـــتلف اللغات. كان أقدمها باللغة اللاتينية في مطالع القرون الوسطى، ولكنها كانت ترجمات سيئة مشوشـــة وناقصـــة كما تُرجم إلى الفارسية بقلم شمس الدين بن علي الجرجاني، وهي ترجمة خطية محفوظة في مكتبة سالارجنك بحيدر آباد الدكن تحت رقم (49) في كتب الطب.

كما تُرجم إلى التركية. وفي عام 1904م ترجمه إلى الألمانية المستشرقان (هيرشبرغ وليبرت)

ونشـــراه مـــع مقدمة رائعة ودراسة مستفيضة لما جاء فيه من معطيات وإبداعات جديدة مقارنة مع معطيات أطباء اليونان التي تجاوزها علي بن عيسى في التذكرة هذه.

ثـــم ترجمه (كيزي وود G.A. Wood) ونشره بالانكليزية، كما ترجم مايرهوف بعض فصوله وألحقها بكتابه عن (التراكوما) وكيفية معالجتها وأدويتها وقد قام بالترجمتين المؤرخون خدمة لتاريخ الطب وليس رغبة في نقل العلوم الطبية.

أقـــدم طبعة للتذكرة كانت في البندقية عام 1497م/903هـــ. ثم تبعتها طبعة عام 1499م/ 905 هـــ. ثم طبعة عام 1500م/ 906هـــ.

وكـــان الفضـــل الأول في نشر التذكرة للأستاذ غوث محيي الدين القادري الشرفي. الذي حققها وعلـــق عليها وطبعت بإعانة وزارة المعارف للحكومة الهندية العالية بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن في الهند سنة 1383هـــ/ 1964م. بعدما اعتمد على ثلاث نسخ خطية.

1-الأولـــى وهي الأصل محفوظة بمكتبة كلية الطب اليوناني بحيدر آباد الدكن برقم (4096). وهـــي نســـخة كاملـــة سوى بعض السقطات القليلة، وبعض العبارات الساقطة من الصفحة الأخيرة، إلا أن كاتبها قد أكملها ونقلها عن نسخة أخرى بمداد أزرق، غير مدون اسمه ولا تاريخ كتابتها.

ولكـــن وجـــد في ختم المقالة الأولى بخطه بتاريخ دهم (بالفارسية: العاشر من شهر رجب المرجب سنة 1093.

2-والنسخة الثانية وهي فلم مأخوذ عن نسخة محفوظة بمكتبة بتنه برقم (18). وهي تامة، على ورقـــتها الـــ(26-28) بعض البقع السوداء تم نسخها كما كتب الناسخ عيسى بن فضل بن جابر بن سليمان المتهم براهب من الموصل سنة 550هـــ في ربيع الآخر الواقع في (28) نيسان سنة 1471م.

3-والثالـــثة فـــي المكتبة الأصفية- حيدر آباد الدكن برقم (68) في كتب الطب. مدون فيها من الباب الرابع للمقالة الثانية إلى آخر الكتاب يعود تاريخ نسخها إلى مستهل شعبان سنة (527 هـــ) مما يدل على أنها أقدم النسخ.

أما النسخ الأخرى فقد انتشرت في (22) مكتبة عالمية وهي في:

1- المكتبة الظاهرية بدمشق برقم (107/ط م/ رقم قديم/ 4532) يعود تاريخها إلى سنة 663 هـــ، مصورة بمعهد التراث العلمي العربي بحلب برقم (137) ونسخة أخرى برقم (8849)، وهما من أقدم نسخ هذا الكتاب.

2- في مكتبة جامعة الرياض برقم (65/طب) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (687) تعود إلى عام 857هـــ.

3- في مكتبة د. سامي حداد- بيروت برقم (20) تاريخها يعود إلى العام (1858) للميلاد ويوافق (1275هـ). نسخها بخطه يعقوب الخوري إبراهيم أبو جوده في غابة برمانا- لبنان.

4-وفي دار الكتب المصرية برقم (42/ طب- ف/ 436) مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (495). وأخرى برقم (77/ طب/ حليم).

5-وفي مكتبة تونس برقم (18460).

6-وفي مكتبة حسن حسني بتونس نسخة أخرى بعنوان (تذكرة الكحالين في العين وأمراضها برقم (18466).

7-وفي مكتبة أحمد الثالث- استنبول برقم (1955/ف/1038) كتبها عطاء الله عام 861هـ. مصورة بمعهد التراث بحلب برقم (894).

8-وفي أياصوفيا- استنبول برقم (3585).

9-وفي مكتبة نور عثمانية- استنبول برقم (3480).

10-وفي مكتبة خدابخش الشرقية- الهند- بانكيبور نسخة نفيسة برقم (18/36) تعود إلى العام 555هـ.

11-وفي مكتبة تبنه برقم (1/244/2091).

12-وفي رامبور برقم (37/471).

13-وفي مكتبة مجلس شوراي- طهران برقم (1569).

14-وفي المكتبة البريطانية برقم (5856/شرقي).

15-وفي المتحف البريطاني برقم (5104/شرقي) مؤرخة عام 896هـ.

16-وفي مكتبة ويلكم برقم (59/شرقي).

17-وفي مكتبة جستربيتي- دبلن برقم (4002).

18-وفي جامعة ليدن برقم (6839/ شرقي).

19-وفي مكتبة باريس الوطنية برقم (5813).

20-وفي مكتبة الفاتيكان برقم (313).

21-وفي جامعة لوس أنجلس برقم (MSAR/3) وأخرى برقم (MSAR/4).

22-في برلين برقم (Oct/1089/2).

إنّ ألق حضارتنا وتراثنا الطبي الذي يرقد على رفوف المكتبات العالمية ينتظر من ينفض عنه غبار الأيام والنسيان. فإلى كل طبيب وكل باحث توجه الأمة العربية نداءها وهي تهديه ألف تحية

إكبار وإجلال عندما يُخرج إلى النور مخطوطة عربية وينشرها في عالمنا الذي يُخرج كل دقيقة قبساً حضارياً ربما تكون جذوته كامنة بين سطور تراثنا العربي.

***

المراجع:

-عيون الأنباء في طبقات الأطباء: ابن أبي أصيبعة- تحقيق د.نزار رضا- منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت.

-إخبار العلماء بأخبار الحكماء: القفطي- مصر 1326هـ. ونسخة ليبزيغ نشر ليبارت 1903م.

-تاريخ أطباء العيون العرب: د.نشأت حمارنة- الجزء الأول، دمشق 1981م.

-الأكحال والشيّافات عند العرب: د.زهير البابا- مجلة الكحال دمشق المجلد الأول.

-التهاب الشريان في الخلايا العملاقة: جارلوس- آ- هاملتون ورفاقه- مجلة الطب الأمريكية- العدد الأول- يناير 1971م.

-أمراض الملتحمة عند العرب: د.مؤنس ود. صلاح غانم- مجلة التراث العربي- دمشق- عدد (11-12) سنة 1983م.

-تاريخ الأدب العربي: كارل بروكلمن القسم (9)- الهيئة المصرية العامة للكتاب 1995م. منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

-فهرس مخطوطات المكتبة الظاهرية- طب 259-261: د.سامي خلف الحمارنة.

-فهرس مخطوطات مكتبة حسن حسني - تونس: تذكرة الكحالين في العين وأمراضها- المجلد الأول ص 430.

-A. Iirkandar: Wllacune catalogue, p. 197.

□□□